الحداثة ومركزية الإنسان

عند عبد الوهاب المسيري

أ.رحماني ميلود

جامعة الأمير عبد القادر

يكاد يكون حديث عبد الوهاب المسيري عن الحداثة وما بعد الحداثة سمة غالبة على كل مؤلفاته، وفي شتى المواضيع، إذ يوظفه كنموذج من النماذج في تحليل الظاهرة الغربية، وفهم مرجعيتها المادية الكامنة، غير أنه لا يلج هذا الموضوع كما هو متداول أكاديميا بالتعريف الاصطلاحي والمفاهيمي، وإنما يتجاوز ذلك إلى الحديث عن تجلياته في الواقع الغربي والعالمي، وعن تحيزاته، فإنه من السهل جدا العودة إلى المعاجم الغربية لنعرِّف المصطلح تحريا للدقة والأمانة، لكن السؤال الذي يضعنه المسيري هو "كيف نترجمه دون أن نختبر هذه التعريفات ومدى مطابقتها للواقع، سواء كان واقعنا أم الواقع الغربي، ودون أن ندرس المراجعات التي تمت بخصوص هذا المصطلح في الغرب، ودون أن ندرس تاريخ تطور الظاهرة التي يشير إليها هذا المصطلح؟"[1]، واضح أن هذا الإشكال الذي يفترضه المسيري ليس إشكالا لغويا، وإنما هو

---

[1] عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، دار الشروق، مصر، 2005، ص 34.

إشكال في مصداقية هذه التعاريف ومطابقتها للواقع، لذا نرى المسيري يتجه في حديثه عن الحداثة اتجاها تحليليا نقديا، وإذا كان المسيري يوظف في تحليله للحداثة مفاهيم عدة مثل العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، والترشيد، والتي تتداخل بشدة في موضوع الحداثة، فإننا سوف لن نتطرق لهذه المفاهيم بغرض تحليل مفهوم الحداثة، وإنما سنتحدث عن قيمة الإنسان في منظومة الحداثة كما جسدتها الحضارة الغربية.

إذا كان الحديث عن الحداثة في الغالب الأعم يجرنا للحديث عما اصطلح عليه مؤرخو الفلسفة بفلسفة الأنوار، التي يصر المسيري على تسميتها بفكر حركة الاستنارة، فإن المسيري بدوره يؤكد أنه رغم وجود كثير من التعريفات للحداثة إلا أنه "ثمة شبه إجماع على أن الحداثة مرتبطة تماما بفكر حركة الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله سواء كان ذلك في دراسة الواقع أو إدارة المجتمع للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العلم هو أساس الفكر، مصدر المعنى والقيمة، والتكنولوجيا هي الآلية الأساسية في محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته، والعقل هو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة"[1].

هذا التعريف يبدو لدى كثيرا من المفكرين تعريفا جامعا مانعا، أو على الأقل كافيا، وهو ما جعل كثيرا من دعاة الإصلاح سواء من اللبراليين أو الماركسيين أو حتى الإسلاميين ينادون بضرورة اللحاق بالغرب، إن لم يصرحوا بضرورة تبني الحداثة بكافة مقولاتها، غير أننا نجد المسيري يقف بنا وقفة نقدية عند هذا التعريف ليعريه من جذوره، وليكشف لنا الوجه الآخر لحركة الاستنارة

[1] نفسه، ص 34.

التي جاءت لتحرير الإنسان، فسكت لنا مصطلحا آخر إن لم نقل إيديولوجية أخرى هي "التقدم"، والتي هي في معنى من معانيها قلب لغائية الزمن المسيحي وتحويل مساره العام من زمن الفراغ المسترسل بسبب الخطيئة والسقوط، إلى تاريخ صعود وامتلاء متتال نحو الأرقى والأحسن حيث يصبح التقدم هو "الركيزة الأساسية للمنظومة المعرفية (المادية) الغربية الحديثة، وهو الإجابة التي يقدمها على الأسئلة النهائية التي واجهها الإنسان"[1].

هذه الإجابة الكلية النهائية جعلت من الإنسان مركز الكون، بإدراكه لقواه العقلية، خاصة مع ظهور العقلانية، ونرجسية الإنسانية الهيومانية، وعلى اعتبار أن حركة الاستنارة بأسها الإيديولوجي (أي التقدم)، قد حدثت تاريخيا على مسرح الحضارة الغربية، تصبح المجتمعات الغربية خصوصا غرب أوربا، هي ذروة التقدم، أي هي النموذج الذي يحتذى، ومن ثم يتحول الغرب إلى قيمة عالمية مطلقة يجب تبنيها، أو نموذجا قياسيا للبشرية جمعاء، وهو ما يفرض على الآخر تبعية إدراكية في استخدامه لمقولة التقدم بكل تحيزاته[2].

ولا تكمن الخطورة في تحيز الحداثة ومفهوم التقدم بادعائها العالمية والإطلاقية في المجال العلمي الاستناري الذي يحمل معه رؤيته الكلية للكون والإنسان فحسب، بل إن هذا الإدعاء أعطى المركزية للإنسان الغربي، وحوّل كل ما عداه إلى مادة استعماليه لخدمة تقدمه وتطوره وحداثته، ومن ثمة فقد قاده هذا التقدم الذي يعد عنده غاية لا غائية، إلى تعميم تجربته التقدمية على بقية دول العالم، حيث أن الغرب "هو العالم الفاعل، أما بقية العالم فهو كيان

[1] نفسه، ص 37.

[2] ينظر : عبد الوهاب المسيري، "التحيز للنموذج الحضاري الغربي الحديث"، مجلة الإنسان، العدد الرابع عشر، السنة الثالثة، 1996، ص 48-56.

ساكن سلبي، وأن البشر الذين يقطنون فيه ينتظرون الإنسان الغربي أن يكتشفهم ولذا أسقطهم من حسابه حيث وضع نفسه في مركز الكون، لذا حين وصل إلى أرضهم لم يرهم، فنموذجه الإدراكي قد وضع حدودا على رؤيته، فاكتشف الأمريكتين ورأس الرجاء الصالح، وإفريقية وبعض أجزاء من آسية"[1].

وتدريجيا كشفت الحداثة الغربية عن وجهها الداروني، حين أرادت أن تنقل التقدم والحضارة للعالم الثالث، فأرسلت إليها جيوشها الاستعمارية لتحولها إلى مادة استعمالية ومصدر للمواد الخام، والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية، بل تحول العالم بأكمله إلى مجال حيوي لإجراء بحوثه، وقضاء أغراضه، بل وحتى لرمي نفاياته[2]، ولا يتوانى المسيري في أغلب كتبه عن سرد أشكال داروينية الحداثة الغربية لفك تحيزاتها، وانطلاقا من هذه السياقات التاريخية نجده يستدرك على تعريف الحداثة المذكور آنفا بقوله : "الحداثة ليست مجرد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هي استخدام العلم والعقل والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة"[3]، حيث يعد هذا الانفصال عن القيمة بعدا مهما في تفسير الحداثة الغربية في سيرورتها وصيرويتها، وهنا نجد المسيري يصف الحداثة ولا يعرفها، لأن التعريف بها كمشروع ليس إلا تبشير بها في نظره[4].

---

(1) عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، ص 33.

(2) ينظر: عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، 2002، ص211-213.

(3) عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، ص 34.

(4) المسيري، ندوة الحداثة وما بعد الحداثة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، الجماهرية العربية الليبية، دط، 1998، ص 11

ويمكن القول أن لاغائية التقدم في الزمن الحداثي، هو الذي أدى إلى الانفصال عن القيمة، وهذه الأخيرة هي التي أدت إلى سقوط الإنسان الغربي في الصيرورة، لتتحول الحداثة الغربية من هدفها المثالي المتمثل في التحكم في العالم انطلاقا من مركزية الإنسان، إلى واقعها المأسوي المتمثل في العدمية وموت الإنسان.

إن تحليلات المسيري في نقد الحداثة الغربية تنطلق أساسا من التطور الدلالي لمفهوم الإنسان في إطار المرجعية المادية ذاتها، حيث ومنذ البداية نشب صراع بين مركزي الكون (الإنسان والطبيعة)، ففصل الصراع في بداية الأمر لصالح العقل الإنساني، إذ تُبين كرونولوجيا تطور الأحداث مع استهلال النزعة الإنسانية عن بداية اختفاء الإله وراء القيم الإنسانية الهيومانية، حينها يبدأ الانفصال تدريجيا عن القيمة المطلقة، لتسود النسبية كل شيء، ويتسيد الإنسان كمرجعية، ليصبح معيارية ذاته ومركز الكون، فهو سوبرمان Superman حقيقي، أو "الإنسان المتفوق"، متأله من حيث كونه مكتف بذاته، حيث تقدم لنا الحداثة في زمنها الأول صورة إنسان يعيش في الزمان الطبيعي الحر، وليس في الزمان التاريخي الإنساني، يعبر عن طاقة عقلانية هائلة استبطنها تراث الحداثة المتجسد في عقلنة المسلكيات الفردية والعامة توازيا مع تفكيك الرؤية الميتافيزيقية، ولكن مع ذلك فهو إنسان طبيعي/مادي، أي لا توجد أدنى مسافة تفصله عن الطبيعة وعن القوانين الكامنة فيها، فهو جزء لا يتجزأ منها، ولا يمكنه تجاوزها، وبالتالي لا يمكنه الفكاك من حتمياتها، حيث يُرد في كليته إليها، ويُفسر بمنطقها، يحركه جهاز عصبي ومجموعة من الغدد، يخضع لحاجات بيولوجية (الأكل، الشرب، الجنس ...)، فهو سبمان subman حقيقي (دون الإنسان)، و"لذا فالإنسان في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، هو وأفكاره

وتاريخه وأشواقه وأحزانه مجرد جزء من بناء فوقي وهمي يرد في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى البناء المادي التحتي الحقيقي، الطبيعة/المادة وقوانينها"[1]، ليتحول المركز إلى الطبيعة/المادة.

ومن هنا يتبين لنا قمة المأزق الوجودي الأنطولوجي[2]، والذي أخرج للبشرية أزمات قيمية أخلاقية وسياسية وغيرها، متراكمة بعضها فوق بعض، والتي لا تعد في نهاية الأمر إلا تجليا لعمق المأزق المعرفي للحداثة الغربية.

ولتوضيح هذا المأزق الوجودي الأنطولوجي، يرسم لنا المسيري تطور مفهوم الإنسان في المشروع التحديثي من خلال استعادة البعد المعرفي النهائي أو الكلي لهذا المشروع، وموقع الإنسان فيه، ابتداء بمركزيته وانتهاء بتفكيكه.

وبما أن الحداثة الغربية في سياقها التاريخي؛ تتحرك في إطار المرجعية الكامنة بما هي تصفية لكل الثنائيات والسقوط في الواحدية المادية، فإننا نجد المسيري في تحليله للحداثة يعرج على الواحدية باعتبارها عاملا رئيسا في فهم الحداثة وتحليل خطابها، ثم يتفرع عن مفهوم الواحدية إشكالية رئيسة أخرى في فهم المشروع الحداثي ككل، وهي إشكالية الإنساني والطبيعي.

يتخذ مفهوم الواحدية عند المسيري بُعدا انطولوجيا بحتا، إذ تعبر عن رد الوجود إلى المبدأ الواحد، ولهذا فهو غالبا ما يسميها الواحدية الكونية، حيث يستخدمها "للإشارة إلى الرؤية الحلولية الكونية القائلة بأن الكون بأسره يمكن أن يُردّ إلى مبدأ واحد هو القوة الدافعة للمادة الكامنة فيها التي تتخلل ثناياها

---

(1) عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، ص 18.

(2) الأنطولوجيا هي "أحد بحوث الفلسفة الرئيسة الثلاث، وهو يشمل النظر في الوجود بإطلاق، مجردا من كل تعيين أو تحديد، وهو عند أرسطو علم الموجود بما هو موجود، وبهذا سمي مبحث الميتافيزيقا العام" مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص 26

وتضبط وجودها، وهي قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد، وهي تشكل نظاماً ضرورياً كلياً للأشياء لا يمنح الإنسان أو أي كائن آخر أهمية خاصة أو مركزية"[1]

وإذا كان المعجم الفلسفي يعرف الواحدية Monisme"بأنها نزعة فلسفية ترمي إلى رد الوجود أو المعرفة أو السلوك إلى مبدأ واحد"[2] والواحدية المادية Monisme Matériel بأنها "رد الوجود إلى المادة وحدها"[3]، فإن المسيري وإن كان يفرق بين الواحدية المادية والواحدية الروحية أو وحدة الوجود المادية ووحدة الوجود الروحية غير أنهما في الأخير يؤولان في نظره إلى المبدأ المادي، إذ إن المبدأ الواحد في وحدة الوجود الروحية هو الإله الذي يحل في مخلوقاته، ويمتزج بها ويتوحد معها، ليبقى اسمه الإله، ويتحول معناه الحقيقي إلى الطبيعة /المادة.

لكن وإن كان غالب حديث المسيري عن الواحدية المادية باعتبارها جوهر المرجعية الكامنة التي تتبناها الحضارة الغربية، فإنه يشير كلما اقتضى الموضوع إلى وحدة الوجود الروحية التي تعبر عن فكر بدائي، ليشير إلى أن الحضارة الغربية بكل ما وصلت إليه من تطور مادي، إلا أنها لم تخرج عن هذا الفكر البدائي، بل إن أي فكر مهما سمى لا يرجع إلى المرجعية التوحيدية المتجاوزة سيبقى هذا وصفه، لذا نراه كثيرا ما يسم المرجعية الكامنة في شتى ما نبع عنها من فلسفات مادية بالبساطة والسطحية، ويصف الحضارة الغربية في قمة تطورها بالسذاجة، لأنها اختزالية تختزل الكون كله، والإنسانية بشتى أبعادها

---

(1) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الفكر، المجلد 1، ص 62

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص209

(3) المرجع نفسه، ص209

إلى المبدأ المادي، الذي ليس هو إلا هبوط بقيمة الأشياء إلى ما هو أدنى. وهنا نجد المسيري يسمي الفلسفات الغربية المادية بمدرسة "إن هو إلا" حيث تستخدم هذه الفلسفات عبارات مثل "في التحليل الأخير"، "وفي نهاية الأمر والمطاف"، "إن هو إلا" وهي عبارة تدل على النموذج الاختزالي الذي يرد الأمور إلى "المبدأ الواحد: الطبيعة/المادة الذي يحوي داخله مصدر التماسك والحركة للنسق، فيُرَدُّ البناء الفوقي بكل ما فيه من أفكار وطموحات إنسانية وحلم بالتجاوز إلى البناء التحتي المادي أو أيٍّ من المطلقات العلمانية المادية الطبيعية (الخصائص البيولوجية - الصفات الوراثية - البيئة الاجتماعية - شهوة التملك - إرادة القوة). قد تختلف مضامين البنية الفوقية وتتنوع ولكن البنية التحتية المادية الواحدية تظل هي الأصل"[1]

إن إشكالية الإنساني والطبيعي بما هي إشكالية الإشكاليات في المرجعية المادية الكامنة في نظر المسيري، ما هي إلا نتيجة حتمية للواحدية بتصفيتها للثنائيات الفضفاضة، وحتى وإن احتفظت ببعض الثنائيات فهي ثنائيات صلبة نسبية مؤقتة يتم تصفيتها في نهاية الأمر، مثل ثنائية الذات والموضوع أو الذاتي والموضوعي، التي تبدو ثنائية واضحة لا تحتاج إلى كبير شرح، غير أنها ثنائية صلبة لأنها تدور دائما في إطار المرجعية المادية الكامنة، لذا لا يبرح الزمن طويلا حتى تصفى هذه الثنائية لأحد الطرفين. وهنا يصادفنا مصطلح آخر للمسيري غالبا ما يأتي رديف الواحدية وهو مصطلح الحلول، أي حلول الإله في المادة (وحدة الوجود الروحية)، أو حلول المركز في الإنسان أو الطبيعة (وحدة الوجود المادية/المرجعية المادية الكامنة)، حيث تبدأ المتتالية النماذجية للمرجعية الكامنة ببساطتها الاختزالية في حل إشكالية الإنساني والطبيعي

---

[1] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 247.

بالمرحلة الإنسانية الذاتية أو ما يعبر عنه في الدراسات الفلسفية بالتمركز حول الذات[1]، وبعد مرحلة شد وجذب قصيرة في الثنائية الصلبة، يتم زحزحة المركز من الإنسان إلى الطبيعة ليصبح التمركز حول الموضوع[2]، فتسود المركزية الموضوعية المادية، وتصير الطبيعة/المادة هي المبدأ الواحد الذي يرد إليه كل شيء.[3]

في ضوء هذا يغدو التطور التاريخي للحداثة الغربية من التألق الإنساني في بداية عصر الحداثة الذهبي والذي أطلق عليه "عصر الاكتشافات"، وأعلن فيه عن سيادة الإنسان على الكون، إلى السقوط في دوامة الصيرورة التي أعلن فيها عن موت الإنسان، تطورا طبيعيا ناتجا عن مقدمات فرضتها واحدية المرجعية المادية الكامنة.

وبعد هذا يحق لنا أن نتساءل مع المسيري :" ماذا يحدث للإنسان في عالم بدون إله؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم نسبي لا توجد فيه ثوابت ولا مطلقات ولا قيم عالمية؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم توجد فيه حقائق بلا

---

[1] المقصود بالذات في المنظومة العلمانية العقلانية المادية، عند المسيري هي الذات الإنسانية التي ليس لها أصول ربانية أي إنها ذات طبيعة مادية. والتي تفرض نفسها كمرجعية لذاتها وللكون، غير أن هذه المرجعية تصفى لصالح الموضوع حيث تصبح الطبيعة/المادة هي المرجع. ينظر عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 95.

[2] المقصود بالموضوع في المنظومة العلمانية العقلانية المادية، عند المسيري هي الطبيعة المادة، والتي تستوعب الإنسان فيصير مقولة من مقولاتها، وتفرض الطبيعة/المادة نفسها كمرجعية نهائية للكون. لهذا يستخدم المسيري مصطلح الموضوع دلالة على أية مجردات ومطلقات مادية، والتي تعد تنويعا على الطبيعة/المادة، ومرجعيتها الواحدية المادية الكامنة. عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد 1، ص 94.

[3] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد الأول، ص 96

حقيقة ولا حق؟ وما هو مصير الإنسان في عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغائية الإنسانية؟"[1]

الحداثة ومركزية الإنسان

إن حديث المسيري عن الإنسان سواء في موسوعته أو في باقي كتبه؛ التي يتأرجح منهجها بين الوصف التاريخي، والنقد التحليلي والمقارنة، ينحدر أساسا من احتكامه إلى ما يسميه منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية، حيث يطلق مصطلح نموذج على كل "بنية تصورية يجردها العقل البشري من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، يستبعد بعضها لعدم دلالتها ويستبقي بعضها الآخر، ثم يرتبها ترتيبا خاصا وينسقها تنسيقا خاصا بحيث تصبح (من وجهة نظره) مترابطة ومماثلة للعلاقات الموجودة بين عناصر الواقع"[2]، وإذ يستخدم المسيري النموذج المعرفي كأداة تحليلية تتسم بأعلى مستويات التجريد في أعماله كلها، قصد الابتعاد عن التسطيح الشمولي، والتخصيص المتطرف، فإنه تفاديا لما قد يعتريه من افتقار إلى البعد الزماني، نجد المسيري يسترسل في سرد الأحداث التاريخية، ويسهب في ذكر الأمثلة الواقعية، لإعطاء نموذجه المعرفي مصداقيته اللازمة.

وإذ يحتل الإنسان وسط كل هذا موضع الكمون، ورصدا لتطور قيمته في المشروع التحديثي الغربي المنفصل عن القيمة، يأتي الحديث عن مركزية الإنسان باعتبارها مرحلة أولية في تاريخ الحداثة الغربية، شكّلت نقطة انطلاق، وأعطت دفعا قويا لها، حيث اقتضت ضرورة ملأ الفراغ بعد سقوط الإله من

---

(1) المصدر نفسه، المجلد1، ص53

(2) عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، دار الشروق، مصر، ط2، 2001 ص281

التفكير الغربي -وهو ما عبر عنه نيتشه بموت الإله- إلى تسيّيد الإنسان أو بعبارة أدق تأليه الإنسان، وذلك لأن الفكر الغربي في هذه المرحلة كان ما يزال مشدودا إلى التمركز حول نقطة ما يبني عليها فكره وحياته، سواء أكان هذا المركز هو اللوغوس اليوناني، أو الإله الديني المسيحي، أو الإنسان الهيوماني أو الطبيعة/المادة.

غير أن تأليه الإنسان مع مولد الحداثة الغربية، بما حملته من قيم إنسانية ونزعة عقلانية، كان بمثابة مرحلة الروح حسب تقسيم مالك بن نبي للدورة الحضارية، إلا أنها كانت الروح التي شحنت الإنسان الغربي بنرجسية عالية جعلت منه سيد الكون، والقادر على فك طلاسم الطبيعة والقبض عليها بواسطة العلم، وإدارة شؤون حياته بنفسه بما رفعه من شعارات إنسانية مثالية، بما معناه أن الإنسان صار مرجعية ذاته والكون، غير أن سيرورة الحداثة الغربية كشفت النقاب عن جانب من أنا الإنسان الغربي في بداية المسار، ليصبح الإنسان الذي تسيد على الكون وتأله فيه محصورا في الإنسان الأبيض، وهنا نجد المسيري يتحدث عن مركزية الإنسان كنقطة انطلاق لمشروع التحديث والعلمنة الغربي انطلاقا من تصفية الثنائية المعرفية الكبرى (الله والكون) والسقوط في الواحدية، حيث نجده يسوق لنا متتالية لتصفية الثنائيات ابتداءا بالثنائية المذكورة، فثنائية الإنسان والطبيعة، إلى باقي الثنائيات وانتهاء بتصفية المركزية نهائيا.

مركزية الإنسان الهيوماني:

يتخذ الحديث عن النزعة الهيومانية عند المسيري بعدا دلاليا خاصا للتعبير عن المرحلة الأولى في متتالية المشروع التحديثي الغربي، حيث نجده يستخدم لفظة الهيومانية للدلالة على "النزعة الإنسانية" ببعدها الإيديولوجي

الذي رافق أحلام الإنسان الغربي مع مطلع القرن التاسع عشر، متفاديا مصطلح النزعة الإنسانية المشبع بتحيزاته للنموذج المعرفي الغربي.

لقد كانت الهيومانية نقطة تحول تدريجي من التمركز حول الله إلى التمركز حول الإنسان، حاول الإنسان الغربي من خلالها التنصل من قبضة الكنيسة؛ مبشّرا بالإنسان كمرجعية عليا تمكنه من تجاوز المنطق الديني، "فالإنسان العاقل بطبيعته يمكنه إدراك قوانين الكون والسيطرة عليها كما يمكنه الوصول إلى حلول كاملة ودائمة لكل المشاكل التي تواجهه، ويمكنه أن يحرز التقدم بشكل لا ينتهي"[1]، حيث يواجه الكون دون وسائط خارجة عن ذاته. لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو من هو الإنسان الذي بشرت به النزعة الهيومانية؟ وكيف تتحقق مركزيته في الكون؟ ثم ما هي الأسس التي بنى عليها الإنسان الهيوماني مركزيته؟ وكيف أحاط المسيري بالتمركز حول الذات كموضوع له أهميته في البناء النماذجي لموضوع الإنسان في الحضارة الغربية، وبالضبط في المشروع التحديثي الغربي؟.

يبتدأ تحليل تطور المشروع الحداثي الغربي بمفهوم الواحدية كمفهوم تأسيسي يستخدمه المسيري لفك شفرة التغير في النظام المعرفي الغربي، حيث يقسم المسيري الواحدية إلى الواحدية الذاتية والتي تشير إلى المرحلة الأولى في الحداثة أي مرحلة التحديث، ثم الواحدية الموضوعية التي تشير إلى المرحلة الثانية في الحداثة، ذلك أن الواحدية هي مسلسل تصفية كل الثنائيات الصلبة، وصولا للواحدية السائلة التي تطبع مرحلة ما بعد الحداثة، حيث تحتل

[1] عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1982، ج1، ص43.

المرحلة الهيومانية الصدارة تحت مسمى الواحدية الإنسانية الهيومانية، وهي المرحلة التي أعلت من شأن الإنسان باسم الإنسانية جمعاء، فجعلت منه سيدا للكون متمركزا حول ذاته مستغنيا عن كل القيم القبلية، فهو وحده مصدر المعرفة، وهو ما عبر عنه المسيري بأنه "إنسان متمركز تماماً حول ذاته التي لا حدود لها ولا قيود عليها، يرفض كل القيم القَبْلية والتعميمات والتجريد، يعيش حسب قوانينه الخاصة الفريدة النابعة من ذاته. فهو مرجعية ذاته ومقياس كل شيء لا يمكن محاسبته بأية معايير خاصة"[1].

وبالرغم من أن الإنسان في التصور الهيوماني يُرد في التحليل الأخير إلى المادة، إلا أنه إنسان متجاوز للطبيعة، وله الأسبقية عليها، وبهذا يحافظ الإنسان في هذه المرحلة على شيء من إنسانيته المركبة التي تحفظه من الذوبان في الطبيعة/المادة، بل تعد الطبيعة مادة استعمالية للإنسان يستعملها ويوظفها في جميع أمور حياته لتحقيق سعادته، وذلك بالسيطرة على الطبيعة بالعقل والعلم، وهو ما جاء به مشروع حركة الاستنارة، والتي يسمي المسيري مرحلتها الأولى في العصر الهيوماني بالاستنارة المضيئة، أي قبل أن يقع الإنسان الهيوماني في فخ تناقضاته لتتحول هذه الاستنارة إلى استنارة مظلمة في مرحلتها الثانية من مرحلة الحداثة، والذي ينظر (أي العصر الهيوماني) أن للإنسان "طبيعة إنسانية واحدة جوهرية عاقلة لا تتغير بتغير الزمان والمكان"[2].

ولتوضيح ماهية الإنسان الهيوماني نجد المسيري يكشف لنا الأسس التي قامت عليها دعوى التمركز حول الذات تحت ما يُصطلح عليه بالمادية

[1] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 280

[2] عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، المجلد1، ص 41.

القديمة التي تستند إلى العقلانية المادية، حيث تنبني هذه العقلانية على مبدأين فلسفيين هامين هما[1]:

1-العقل مستقل بذاته وقادر على التفاعل مع الطبيعة (والواقع الموضوعي) بشكل فعال، وعلى الوصول إلى القوانين الكامنة في المادة وتجريدها على هيئة قوانين عامة، وأنه يمكنه انطلاقا من ذلك أن يطور منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية وجمالية تهديه في حياته، ويمكنه على أساسها أن يفهم الماضي والحاضر ويستشرف المستقبل، وأن يرشد حاضره وواقعه.

2-إن الواقع الموضوعي يحوي داخله قوانينه التي يمكن للعقل استيعابها، وهذا الواقع بالتالي ليس مجرد أجزاء غير مترابطة، وليس مجرد حركة عشوائية، وإنما هو كل متماسك مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة، بل والمطلقة، والعقل حينما يدرك هذا الكل المتماسك الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة، يدرك أن حركة الأجزاء ليست حركة عشوائية، وإنما هي تعبير عن الكل الثابت المتجاوز.

وبناء على هذين المبدأين تنحصر المعرفة في دائرة المحسوس، حيث لا يعد العالم الغيبي موضوعا للمعرفة، فعقل الإنسان -بما هو مقولة مادية- قادر على استخلاص الكليات من التفاصيل المادية المتناثرة؛ تتسم بشيء من الثبات يعصمها من الصيرورة المادية، ويمكِّنها من إيجاد منظومات معرفية وأخلاقية تحفظ التوازن بين الذات الإنسانية والطبيعة، وهو ما أوقعه في وهم السيطرة على الطبيعة الذي جاء نتيجة اعتقاد الإنسان بتوازيه معها وتجاوزه لها في الوقت

---

[1] عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 29.

ذاته وهو ما يسميه المسيري بالنزعة الجنينية أي هي النزوع إلى سد المسافة التي تفصل بين الإنسان وما يحيط به سواء الطبيعة أو الواقع الذي يحيط به، والاتحاد مع هذا المحيط ليصبح الإنسان كائنا لا حدود له، يعبُ من هذا المحيط ويشبع حاجته منه، وهي نزعة فطرية في التملك بعيدا عن التدافع الإنساني بين الخير والشر وباقي الثنائيات، "إنها نزعة للهروب من الحيز الإنساني المُركّب إلى عالم واحدي أملس بلا حدود. هذا العالم الذي يهرب إليه الإنسان يشبه الرحم حيث كان يعيش الجنين بلا حدود ولا قيود خارج أي حيز إنساني، لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن رحم أمه ولا توجد مسافة أو حيز تفصل بينهما، أو يشبه حياة الطفل الرضيع في الأشهر الأولى من حياته، حين كان يتصور أنه لا يزال جنيناً في الرحم لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن أمه وأنه جزء لا يتجزأ منها، وحينما يمسك بثديها يتصور أنه قد تحكّم في العالم بأسره، وأنه قد تواصل مع العالم كله، وأن الدائرة قد انغلقت تماماً فيشعر بالطمأنينة الكاملة."[1]

إن الحالة الجنينية التي تحدث عنها المسيري هي تجسيد لتمركز الإنسان حول ذاته في إطار المرجعية الكامنة، حيث أضفت الهيومانية القداسة على الإنسان، ورسمت للعالم صورة إنسان يعيش في الزمن الطبيعي الحر، وليس في الزمن التاريخي الإنساني، ورفعت له شعارات مثالية كالحرية والعدالة والمساواة، وغيرها من الشعارات التي زخر بها الخطاب الأيديولوجي الهيوماني، ليبرهن بأن الإنسان قادر على إبداع نظم أخلاقية وجمالية بعيدا عن التعالي المتافيزيقي، وهي نظم تشترك فيها الإنسانية جمعاء، غير أن هذه النظم الأخلاقية والجمالية التي عبرت عنها الهيومانية تفصح عن جانب ميتافيزيقي

[1] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 68

خفي حتى وإن أصرت على إنكاره، وهو ما يسميه المسيري بالإله الخفي[1]، ذلك أن الهيومانية في سعيها لتحقيق سعادة الإنسان تستبطن مفهوما للطبيعة الإنسانية المشتركة كأداة تحليلية، وليس ذلك في نظر المسيري إلا سعي للبحث عن القبس الإلهي المركوز في الإنسان، ولا يمكن لهذا القبس أن يكون له أساس مادي .

ويأتي إنكار القبس الإلهي بشكل واعي في إيديولوجيا النزعة الهيومانية تعبيرا عن رفض التجاوز، لكنه ليس ذلك الرفض المطلق الذي عرفته فيما بعد الحضارة الغربية بعد تفكيكها للإنسان ابتداء من انتقالها إلى التمركز حول الموضوع، وهنا نجد المسيري يستخدم نموذجا آخر لتفسير هذه المرحلة من الحضارة الغربية، وهو نموذج العلمانية، والتي يقسمها إلى العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.

وإذا تأملنا استخدام المسيري لنموذج العلمانية في تحليله للحضارة الغربية، تتضح لنا معالم المرجعية الكامنة بشكل جلي حيث أن العلمانية هي الإطار المعرفي النهائي للحضارة الغربية، ففي استخدامه لهذا النموذج، تأتي المرحلة الهيومانية كمقدمة في متتالية العلمانية، حيث يحتفظ الإنسان ببعض المطلقات أو الكليات غير أنها كليات سلبية غير فاعلة في حياة الإنسان، وهي ما يسميها المسيري بالعلمانية الجزئية، أي أنها رؤية جزئية للواقع تنطبق على عالم السياسة أو الاقتصاد "وتلزم الصمت تماما بشأن المرجعية الأخلاقية والأبعاد الكلية والنهائية للمجتمع ولسلوك الفرد في حياته الخاصة، وفي كثير

---

[1] ينظر: عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، ص 198-199.

من جوانب حياته العامة"[1]، في حين تبقى المرجعية كامنة في الإنسان في المجال السياسي والاقتصادي.

لقد أفضت النزعة الهيومانية إلى حالة من اليوتوبيا[2]، جعلت الإنسان يحلم بعالم منظم خاضع كلية للقوانين التي سيكتشفها، ويتحكم من خلالها في الطبيعة ويصحح مسار التاريخ، وقد أسفرت هذه الأحلام عن شخصيات بطولية خارقة مثل الزعامات الكارزمية حيث نجد المسيري يضرب لنا أمثلة عن بعض هذه الشخصيات البطولية التي أفرزتها الهيومانية مثل المخلص العلماني هتلر، وستالين، وفورد، وروكفلر، كما يمثل لنا في مجال السينما أبطالا آخرين مثل باتمان، وسوبرمان وطرزان، وغيرهم، أما في مجال الأدب والذي يسمى بالأدب العالمي تحيزا للنموذج المعرفي الغربي فقد أفرز لنا شخصية "دون

---

(1) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، مصر، 2002، ج 2، ص 471.

(2) يوتوبيا Utopia اشتهر مصطلح يوتوبيا مع "توماس مور" الذي ألف سنة 1515 رواية بهذا الاسم، حيث أصبح يطلق هذا المصطلح على الأفكار المثالية، ويذهب البعض إلى أن أصل المصطلح يعود إلى الفلسفة الإغريقية وبالضبط إلى أفلاطون، حيث يربط الكثير بين مصطلح اليوتوبيا والمدينة الفاضلة، وقد ارتبطت اليوتوبيا بفكر النزعة الإنسانية، حيث انتشرت كثير من الأفكار (اليوتوبيات) باعتبارها النموذج الأمثل الذي يجب أن تسعى الإنسانية إلى تحقيقه، غير أن اليوتوبيا لم تقتصر على هذه النزعة فحسب بل اتسمت بها أغلب الأيديولوجيات الغربية. وبالرغم من أن الحضارة الغربية تدعي العلم والعقلانية إلا أنها رسمت صورة خيالية مثالية جدا عن العالم المحكوم بقوانين المادة والتي تمكن الإنسان من التحكم الكامل في الكون، وهي ما يشار إليها باليوتوبيا التكنوقراطية.

ينظر : *Encyclopedie univesalis*, Paris, 1996, V23, p. 264

كيشوت الذي يتمركز تماما حول ذاته ولا يرى إلا طواحين الهواء غير الموجودة وعالم الفروسية والمثاليات الذي انقضى"[1].

مركزية الإنسان الأبيض:

إن اعتماد المسيري على التحليل النماذجي (أي على النماذج التحليلية) جعل من صياغته التعبيرية عملية حلزونية تتميز بالتكرار في دراسته التحليلية للظاهرة التاريخية الغربية، وذلك لاختبار مدى المقدرة التفسيرية لنموذجه التحليلي، غير أن هذه الصبغة الحلزونية تجعل من تناول تقسيمات المسيري للنموذج الواحد مثل المشروع التحديثي، والتي تعتبر بدورها (أي التقسيمات) مجرد آليات تفسيرية، صعبة التحديد، حيث يختلف تحديد المسيري لهذه التقسيمات من مجال لآخر، كما أنه غالبا ما يدلل على تمفصلات تقسيماته بما ينتج عنها من تمظهرات في الواقع متجنبا التحقيب التاريخي الزمني، كما أنه غالبا ما تكون تمظهرات مرحلة ما متداخلة مع أخرى مما يزيد في صعوبة الوقوف على تحديد دقيق لتقسيمات المسيري التاريخية.

لقد وقع المشروع التحديثي في بدايته في تناقض كبير أودى بالمشروع الحداثي إلى عكس ما كان يأمل، حيث انطلق المشرع التحديثي في المرحلة الهيومانية بالتمركز حول الذات وتهميش دور الإله في الحياة، ومن ثمة فالإنسان هو مرجعية ذاته والكون، غير أن كمون المرجعْية في ذات الإنسان مبني أساسا على افتراضين كبيرين هما أسبقية الإنسان على الطبيعة رغم أنه لا ينفك عنها في التحليل الأخير للمرجعية المادية، وكذا تجاوز الإنسان للطبيعة أو ما يسميه المسيري بـ"الكل المتجاوز داخل الإطار المادي، أي تصور أنه من تفاصيل

---

[1] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 274.

الواقع المادية المتناثرة يمكن للعقل الإنساني أن يجرد كليات متجاوزة للصيرورة المادية"[1]، غير أن هذين الافتراضين هما صلب التناقض الذي وقع فيه المشروع التحديثي، حيث أن الإنسان الهيوماني كان يدور في فلك الواحدية، إلا أنها لم تكن واحدية مطبقة، ذلك أن الإنسان الهيوماني إنسان متجاوز للطبيعة، حقق للذات الإنسانية قدرا من الاستقلالية عن الطبيعة/المادة، غير أنه في التحليل الأخير كان يدور في فلك المرجعية المادية، الأمر الذي جعل الإنسان الغربي يتحدث عن الإنسانية جمعاء انطلاقا من ذاته الفردية، أي أن غياب المرجعية المتجاوزة جعل الإنسان الغربي يتحدث باسم الإنسانية جمعاء، باحثا لها عن الخير من منظوره الفردي.

وهنا نجد المسيري يرسم لنا التحول التدريجي في تقسيمه للواحدية الذاتية من الواحدية الإنسانية الهيومانية إلى ما يسميه بالواحدية الإمبريالية[2] والعرقية، حيث "ينغلق الإنسان على هذه الذات، فيصبح تدريجياً إنساناً فرداً لا يفكر إلا في مصلحته ولذته، ولا يشير إلى الذات الإنسانية وإنما إلى الذات الفردية. حينئذ تصبح الذات الفردية، لا "الإنسانية جمعاء"، هي موضع الحلول، فيؤلِّه الإنسان الفرد نفسه في مواجهة الطبيعة وفي مواجهة الآخرين ويصبح إنساناً إمبريالياً"[3].

---

[1] عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، ص 45

[2] الأمبريالية هي المرحلة الأعلى الاحتكارية والأخيرة في الرأسمالية، وهي مرحلة بدأت ببداية القرن الحالي، وبانتقال الرأسمالية إلى مرحلة الاحتكار تتحول إلى رأسمالية متدهورة طفيلية.

م.روزنتال وب. يودين، الموسوعة الفلسفية، ص 49

[3] عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 281

وبالرغم من أن المسيري لم يؤسس للواحدية الإمبريالية والتي تعد مرحلة هامة في التحول من الواحدية الذاتية إلى الواحدية الموضوعية، غير أن طبيعة صياغته التعبيرية الحلزونية جعلت الحديث عن الواحدية الإمبريالية والعرقية وخاصة مركزية الإنسان الأبيض مكرورا ومنتشرا في كافة نماذجه التحليلية .

لقد أعطت البداية المتألقة لما يسميه المسيري بالاستنارة المضيئة الإنسانَ ثقة كبيرة في نفسه باعتباره مرجعية ذاته والكون، غير أن الانتصار للذات الإنسانية لم يبرح أن تحول إلى انتصار للذات الغربية التي تحولت إلى معيار ونموذج للتقدم، لتصبح المركزية الإنسانية هي مركزية الإنسان الأبيض أي الإنسان الغربي الذي أصبح مرجع ذاته أولا، ومرجع باقي بني الإنسان، ثم مرجعية الكون بأسره، وهنا تنتج ثنائية صلبة أخرى هي ثنائية الأنا والآخر، حيث تعبر الأنا عن المرجعية الواحدية الإمبريالية الكامنة في الذات الغربية، والتي تحوسل الآخر أي تحوله إلى وسيلة ومادة استعمالية، "ومن ثم، بدلاً من توظيف الطبيعة وتسخيرها للإنسانية جمعاء، بدأ الإنسان الغربي في حوسلة بقية البشر والطبيعة باسم حقوقه المطلقة وباسم تفوقه الحضاري. فتحولت الهيومانية إلى إمبريالية كاملة لا تعترف إلا بالقوة والتفوق العرقي باعتبارها المعايير الوحيدة"[1].

وإذا كانت الهيومانية قد قامت على مبدأين أساسيين هما العقلانية والمادية، أي العقل القادر على إدراك الكليات وإبداع النظم، والكل المادي الثابت المتجاوز المتمثل في الواقع الموضوعي بجزئياته المتناثرة، فإن الواحدية الإمبريالية قد حصرت العقل الإنساني القادر على إدراك الكليات في العقل الغربي، ليتحول الواقع الموضوعي بدوره إلى الآخر الموضوعي بما فيه الطبيعة

(1) المصدر نفسه المجلد1، ص 283.

والإنسان غير الغربي، الأمر الذي أفضى إلى عنصرية غربية تدَّعي تفوق العرق الغربي على باقي الأعراق والأجناس، وبالتالي تفوق الحضارة الغربية على باقي الحضارات بحكم الحتمية الوراثية. "وقد دعم الإنسان الغربي دعوى المركزية لنفسه بمجموعة من النظريات الخاصة بعالم الأخلاق والهوية والحضارة تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة وتؤكد تفوقه، وهذه النظريات هي ما يطلق عليه النظرية العنصرية التي شكلت إطارا شاملا لرؤية الذات والحضارة والسلوك"[1]

يصور لنا المسيري تحول الكون كله إلى مسرح لاكتشافات الإنسان الغربي وتجاربه العلمية، حيث أسفرت هذه عقلانيته المادية عن طبعين خطيرين طبَعا الحضارة الغربية وغيرا مسار المثالية الهيومانية، وهما التوسعية الاستعمارية بحجة نقل الحضارة إلى باقي الشعوب غير الغربية، وهي ما اصطلح عليه المسيري بعبء الرجل الأبيض، أو المهمة الحضارية للإنسان الغربي، والغائية العلمية المحكومة بالسببية الصلبة[2]، فقد تبدت آثار الطبع الأول (الطبع التوسعي الاستعماري) منذ البداية، إذ كانت بذوره كامنة في لاوعي الإنسان الغربي، والنابعة أساسا من إحساسه بالتفوق والشعور بالأناقة، الذي ورَّثه إياها

---

(1) عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 181.

2) السببية الصلبة عند المسيري هي الإيمان المطلق بأن لكل ظاهرة سبب يحكمها بغض النظر عن طبيعة الظاهرة، وهي تكشف عن نظرة مادية للحياة، حيث يعتقد المؤمنون بالسببية الصلبة بأن العالم قابل لأن يعرف لأنه معطى مادي، وأن العالم لا يوجد فيه ثغرات أو مسافات، فكل ظاهرة (طبيعية أم إنسانية - بسيطة أم مركبة) سبب واضحا ومجرد يحكمها، وعلاقة السبب بالنتيجة علاقة حتمية، "كما أنها سببية مطلقة بمعنى أنها تغطي كل المعطيات والظواهر بشكل مطلق في كل تشابكها وتداخلها وتفاعلها .ولحظة نهاية التاريخ هي لحظة إدخال كل شيء في شبكة السببية الصلبة المطلقة"، عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 61.

الفكر اليوناني، حيث نجد المسيري يستخدم نموذج العلمانية ويربطها بالإمبريالية كمقولة تحليلية باعتبارها جزءاً لا تتجزأ من الرؤية المعرفية العلمانية حيث مؤسسة الدولة المطلقة في الداخل الأوربي وجيوش الدولة المطلقة في الخارج العالمي، وهو تعبير صرف عن نزعة جنينية محضة، فربط بين ظهور الدولة القومية المطلقة والتشكيل الاستعماري الإمبريالي الغربي، "فقد تبدت الرؤية المعرفية الإمبريالية على هيئة الدولة المطلقة في الداخل الأوربي وعلى هيئة التشكيل الاستعماري الغربي في الخارج العالمي. ورغم اختلاف المجال والآليات، ظلت الأهداف النهائية واحدة: ترشيد البشر وتسخيرهم وفرض الواحدية المادية على العالم وتحويله إلى مادة متجانسة متحوسلة."[1]

وبهذا المنظار نجد المسيري يتحدث عن المسار الاستعماري الغربي كظاهرة أفرزها النموذج المعرفي الغربي المحتكم إلى المرجعية المادية الكامنة حيث "بدأ الإنسان الغربي ينزح عن قارته الأوربية في عصر نهضته وفي بداية مشروعه التحديثي العلماني. فاستعمر الأمريكتين حيث أسس مجتمعات استيطانية ضمت فيما بعد جنوب أفريقيا، فأستراليا ونيوزيلندا والجيب الاستيطاني في الجزائر، وأخيراً فلسطين"[2]، كما نجده يتحدث عن الديمقراطية ضمن العلمانية الامبريالية لتحقيق الغرض الغربي قائلا :"يُلاحَظ أن الدول الغربية الديموقراطية، وفي طليعتها إنجلترا وفرنسا، هي بلاد لها مشروعها الاستعماري الضخم حيث التهمت معظم أنحاء العالم وقمعت السكان الأصليين وسلبتهم حريتهم وحطمت مؤسساتهم الاجتماعية والثقافية وقُل نفس الشيء عن هولندا وبلجيكا، وبدرجة أقل عن إيطاليا. وبعد أن استعمر الإنسان

(1) عبد الوهاب المسيري، الموسوعة، المجلد1، ص 311.
(2) المصدر نفسه، المجلد1، ص 312.

الغربي الولايات المتحدة وأقام فيها نظاماً سياسياً مستقراً، قام بعملية إبادة للسكان الأصليين، ثم دخلت الولايات المتحدة في تجربتها الاستعمارية فاحتلت بورتوريكو وهاواي والفلبين، ووضعت أمريكا اللاتينية تحت مظلتها بمقتضى مبدأ مونرو وقد ترسخت الديموقراطيات الغربية عن طريق الإمبريالية إذ نجحت في تسريع التراكم الرأسمالي"[1].

أما الغائية العلمية المحكومة بمبدأ السببية الصلبة، فهي ما بشرت به العقلانية والتي تعتبر الحامل المنهجي والمعرفي للحداثة الغربية، والتي أعطت لها دفعا قويا مواصلة سعي النزعة الهيومانية في تأكيد ألوهية الإنسان، غير أن هذه الغائية قائمة على الأساس المادي الذي يحكم النموذج المعرفي الغربي، حيث تحول العلم الذي كان في البداية مجرد وسيلة لإسعاد الإنسان إلى غاية في حد ذاته به يفسر الوجود كله، وهو الذي يعطي للوجود معناه، وهنا نجد المسيري يكشف لنا أسس المادية التي تحكمت في التفكير الغربي برمته، حيث ترى المادية أسبقية المادة على الإنسان وكل نشاطاته.

بالرغم من أن المادية لها جذور عريقة في الفكر الغربي إلا أنها لم تعرف تطرفا مثلما عرفته في عصورها الحديثة، وهنا نجد المسيري يضرب صفحا عن الجذور التاريخية والفكرية لنشأة المادية في الفكر الغربي ابتداء من الفكر اليوناني فالفكر المسيحي، مركزا على كشف أسسها في العصر الحديث، حيث يضع مفهوم الطبيعة/المادة في مقابل الإنسان أو الإنسانية المشتركة، إذ يرى بأن الطبيعة في الفلسفات المادية هي تعبير مهذب لكلمة المادة، لذا نجده يقرن بينهما دائما لتشكل مصطلحا رئيسا في تحليله للنموذج المعرفي الغربي، يتخذ

---

[1] المصدر نفسه، المجلد1، ص 312.

سمات أساسية تشكل في مجموعها أساس الفلسفة المادية والتي يمكن تلخيصها فيما يلي[1]:

1-الإيمان بوحدة الطبيعة، فهي كل متكامل لا فراغات فيها.

2-الإيمان بقانونية الطبيعة (الاطراد الحتمي الثابت لكل قوانين الطبيعة)

3-الإيمان بأن الطبيعة تتحرك بشكل تلقائي، وبأن حركتها أمر مادي.

4-نفي الغائية عن العالم بما فيه الإنسان.

5-نفي الغيبيات أو أي تجاوز للنظام الطبيعي المادي، فقوانين الطبيعة كامنة فيها، فهي بذاتها ولذاتها، فهي واجبة الوجود.

وانطلاقا من هذه النظرة يبين المسيري بأن "نظرية المعرفة المادية (في مراحلها الأولى) تقر بإمكانية قيام المعرفة، فالعالم قابل لأن يعرف، لأنه معطى لأحاسيسنا ووعينا، بل إن مادية العالم هي شرط لمعرفته، ولمعرفة هذا العالم لا يحتاج الإنسان إلى استعارة وسائل من خارج عالم الطبيعة/المادة، فهناك أولا الحواس الخمس التي ترصد المحسوسات، وهناك عقله الذي يرتب ويركب المحسوسات، ولكنه ليس منفصلا عن الوجود المادي الحسي، فالمعرفة هي انعكاس الواقع الخارجي في دماغنا"[2]، ولا تبقى هذه النظرة المادية حبيسة المجال العلمي فحسب بل تطال جميع الحياة بما فيها الأخلاقية والجمالية.

لقد حققت النظرة المادية نجاحا كبيرا في العصر الحديث نظرا لما تتميز به من تبسيط للواقع واختزاله في السببية العلمية التي تعطي تفسيرا مقنعا للوجود، يريح الإنسان من أرق الأسئلة الوجودية، وهنا نجد المسيري يرجع

---

[1] عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 15

[2] المصدر نفسه، ص 17.

جاذبية الفلسفات المادية إلى سببين مهمين، هما المستوى المعرفي (الابستمولوجي) حيث تتميز السببية المادية بمقدرة تفسيرية عالية خاصة في المجال لعلمي، ثم المستوى النفسي (السيكولوجي) حيث تحول الفلسفات المادية الإنسان إلى جزء من كل أكبر، تمحى فيه هوية الإنسان ويتماهى فيها الإنسان بالطبيعة وهو ما يسميها المسيري بالنزعة الرحمية أو الجنينية.

لقد أعطت دعوى السببية الصلبة القائمة على النظرة المادية المطلقة الإنسان الغربي في المرحلة الإمبريالية كبرياء ساذجا جعله يطمح في معرفة كل شيء، والتحكم في العالم والكون خلال وقت وجيز، خاصة بعد ظهور الرؤية النيوتنية للكون، التي تتسم بالحتمية الميكانيكية، حيث ظهرت بعد ذلك "الرؤية العلمية المادية التي نادت بأنه لا يمكن الحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب، وقد ظلت هذه الرؤية حتى نهاية القرن التاسع عشر"[1]، إلى أن تحطمت تحت مطارق النظرية النسبية، وغيرها من النظريات التي أبطلت دعوى السببية المطلقة، غير أنه لم يبرح الزمن طويلا حتى تحول الفكر الغربي إلى اللاسببية المطلقة والتي يسميها المسيري باللاسببية السائلة.

إن شر ما نتج عن السببية الصلبة هو سقوط آخر ما بقي للإنسان الغربي من قيم في مخابر البحث، حيث لا يعترف البحث بالقيم الأخلاقية ولا بالجوانب الإنسانية في الإنسان، ليتحول الإنسان في ذاته إلى موضوع للبحث، ويتساوى على مشرحة التجريب مع المادة تماما، وتفصح النزعة الإمبريالية في الإنسان الغربي عن تطرف شرس بامتزاج الطبعين، الطبع الاستعماري بالغائية العلمية، ليؤكد النزعة العرقية وتفوق الجنس الغربي، وهنا يسهب المسيري في ذكر الأمثلة التي تؤكد قمة التطرف العرقي الناتج عن الرؤية المادية للنموذج

---

[1] المصدر السابق، ص 23.

المعرفي الغربي، حيث نجده يذكر على سبيل المثال " موقف النازيين من العلم وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية، في واحد من أهم المفاهيم الطبية العلمية المحايدة، في القرن التاسع عشر، وهو مفهوم الصحة العرقية الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه، فهما سر تفوقه ورقيه، عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة، التي تعد تعبيرا عن انهيار العرق وانحطاطه"[1]، وقد كانت أفضع التجارب العلمية التي استخدم فيها الإنسان كمادة للتجريب في الحربين الغربيتين الأولى والثانية، ولا يتوانى المسيري عن سرد الأمثلة والوقائع التاريخية المعبرة عن لاإنسانية الإمبريالية الغربية حيث يذكر على سبيل التدليل:" وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا وقد اختار د.برجر، التابع لإدارة الإس.إس عددا من العينات البشرية (79 يهوديا، بولنديان، 4 آسيويين، 30 يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية، كما كان مهتما بدراسة اثر الغازات الخانقة على الإنسان، أن الدكتور برجر نفسه فكان مهتما بالآسويين وجماجمهم، وكان يحاول أن يكون مجموعته الخاصة"[2].

لقد جعلت الإنسانية الهيومانية الإنسان سيد الكون، غير أن غياب مرجعية متجاوزة تضبط حركتها، جعلت من العقلانية التي دفعت بحركة الاستنارة المضيئة توقع الإنسان في استنارة مظلمة على الإنسانية جمعاء، "وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تعفي الإنسان من المسؤولية

---

1) عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 229-230.
2) المصدر نفسه، ص 234.

الأخلاقية فهي مستمدة من الطبيعة المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغايات والأخلاقيات الإنسانية، ومن ثم تحرر الإنسان الغربي من أي مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم (الإنسان ككل) أو (الإنسانية جمعاء) أو (صالح الإنسانية)، كما تحرر من القيم المطلقة مثل (مستقبل البشرية) و(المساواة) و(العدل)، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماما عن كل القيم والغايات الإنسانية العامة، وأصبح هو نفسه تجسيدا لقانون الطبيعة ولحركة المادة وأصبح مرجعية ذاته، وقانون ذاته، ومعيارية ذاته، وغائية ذاته، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرّفه هو. وبذا تحولت الإنسانية الهيومانية الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية" [1].

[1] المصدر نفسه، ص 198